الفصل الثامن
تجديد النمو الشخصي بالإرشاد

تروي ملحمة الأوديسة أنه عهد إلى المينتور بتربية تليماخوس، ابن أوديسيوس الصغير وتنشئته حتى يشتد عوده. فكان المينتور الوصي الحارس، كما كان الحكمة المجسدة ومالك المعرفة. وكان المينتور المعلم الكامل دأبه يعلم تليماخوس بإخلاص وتعريفه إلى أحوال العالم فوفر له المعرفة اللازمة للعيش في ذلك العالم. فلما شب تليماخوس عن الطوق وعاد أوديسيوس إلى بيته انتهت مسؤوليات المينتور بعد أن اكتملت مهمته.

"لقد قطع الإرشاد، mentoring، شوطاً طويلاً في تطوره من مهمته الأصلية، وهي التنوير" .(Landis 1990,p.28) وبالرغم من أن المفهوم الأصلي لكلمة mentor الذي معناه، "المرشد، المشير المخلص الأمين" ما زال موجوداً إلا أن هذا التصور أمسى قاصراً على نحو يدعو للكآبة. فالمرشد اليوم ليس مصدر الحكمة التي تشيع المعرفة وتبذل الحقائق وتحمي وتقي. بل الحق أن المرشد اليوم شريك ميسر في علاقة تعلم مستمرة موجهة إلى تحقيق أهداف المسترشد وأغراضه. ويرجح أن يتخذ المريدون على امتداد العمر عدة مرشدين، وفق حاجة كل فرد في نقطة معينة من الزمن.

يتمتع المرشد اليوم بفوائد الفرص الغنية في التعلم التي يوفرها الإرشاد للمرشدين والمريدين معاً. كما يتغذى نمو المرشد وتطوره بالتأمل والتجدد والإنتاج.

ولنا في برتراند ومارنا، وليسلي وإليشا، أمثلة عن المرشدين الذين ييسرون

علاقات التعلم الفعال. فتجاربهم تعرض إنجازات تعلمية ناجحة أسهمت في تجديد نموهم الذاتي.

كان برتراند، وهو مهندس ديكور متقاعد، يجد العمل في الإرشاد مجدداً للحيوية. فالإرشاد عنده يشحذ من عزيمته ويجعله متابعاً للجديد في صناعة الأثاث ويثير فيه شعوراً بالنفع والفائدة. فبإرشاد الشباب الذي ثابر عليه على مدى السنوات السبع الماضية هو دائماً منهمك في عمل جديد.

تشغل مورنا كرسياً مرموقاً في الجامعة حيث تعمل. وهي من العلماء المشهورين وتحظى بالاحترام وتقوم بإرشاد طلابها على مدى ثلاثة عقود. والطلاب يندفعون إلى المحاضرات التي تقوم بإلقائها لمجرد أن ينعموا بحضورها. وإرشاد الجيل الصاعد من العلماء يشكل إحدى المباهج والمسرات في حياتها. وهي تجد في عرض خبرتها وتجربتها مبعث رضى عظيم في نفسها. وتراها ترصد مسترشديها حين يشرعون في خوض رحلاتهم في العالم الأكاديمي ويتطورون وينمون ثم يبرزون في حياتهم العملية. كما يستمر المسترشدون في اطلاعها على آرائهم المعمقة سنوات طويلة بعد أن تبلغ علاقتهم بها خاتمتها. وتحملها هذه النظرات على الانشغال بمفاهيم وأفكار بطرق جديدة لم تخبرها من قبل. وهكذا أطال الإرشاد حياتها المهنية ذات العقود الستة وبعث الحيوية فيها.

ويتطلع ليسلي، المستشار في الشؤون المهنية ورجل الدين، إلى إقامة علاقات إرشادية لما توفره من تعرف دائم إلى طرق تفكير جديدة، ومنظورات، ووجهات نظر جديدة. وما يتعلم من علاقاته الإرشادية يثير لديه أفكاراً جديدة ويشير إلى مجالات لنموه وتطوره الذاتي. وهو يرى أنه يتعلم من مسترشديه قدر ما يأخذ عنه مسترشدوه.

قامت إليشا، المحامية في مكتب قانوني كبير، بإرشاد مسترشدين كثر، وكان

نجاحها مع بعضهم أفضل مما هو مع بعضهم الآخر. وهي تعزو تطور مهاراتها في إقامة العلاقات إلى ما كانت تتلقاه من تغذية مرتدة من مسترشديها. ومرد ذلك أنها تأخذ تعليقاتهم بقدر عظيم من الجد وتجهد في تطوير مواهبها في التواصل مع الآخرين وتعزو ما حظيت به من نجاح في مهنتها إلى امتلاكها هذه المواهب.

إن كل واحد من هؤلاء المرشدين يعزو إلى الإرشاد فضل المساهمة في ما تحقق لهم من نمو ذاتي وغنى. وهؤلاء يتدبرون أيضاً التأمل المعمق في عملهم في الإرشاد بانتظام (وإن كان هذا لا يبدو جلياً من الوصوفات المذكورة آنفاً).

التأمل:

يجد المرشدون الذين يأخذون بالتأمل بصورة نقدية أن ذلك يزيدهم التزاماً في علاقاتهم الإرشادية. فهذه العلاقات تمكنهم من شحن أنفسهم بطاقة عارمة وتوفر لهم العمل القائم على المعرفة، وهم على العموم يجدون علاقاتهم الإرشادية تشيع فيهم قدراً من الرضى أعظم مما كان يتوفر لهم. ثم إنهم يخبرون عندئذٍ حالة من الغنى تشيع في علاقاتهم الشخصية والمهنية، كما تغدو عادة التأمل النقدي أمراً من الأمور الباطنة.

عملت مارثا مرشدة عدة مرات خلال حياتها المهنية على امتداد خمس عشرة سنة في الخدمة العامة. وفي إحدى علاقات الإرشاد النظامية كان التركيز على توجيه موظف مستجد في عمله. وفي مناسبة أخرى، وكانت العلاقة غير نظامية، راحت تتولى إرشاد صديقة كانت تعمل على إعادة تكوين صورتها العامة. كما أنها تولت إرشاد رجل قدم إلى الولايات المتحدة من الأرجنتين وهدفه تأسيس تجارة ينطلق فيها من مكان إقامته. ولقد وجدت في كل من هذه العلاقات متعة ونالت القدر الكبير من الرضا وهي ترى النجاح يحالف كل مسترشد لها.

ولكنها لم تدرك إلا مؤخراً، حين أخذت تفكر في طبيعة علاقاتها الإرشادية، أن تلك العلاقات كان يغلب عليها نقل المعرفة أكثر من طلب التعلم. وكان هذا الاكتشاف فتحاً حقيقياً لها لتتأمل في حقيقة ذاتها كمرشدة وكيف يمكنها أن تغني تجربتها في الإرشاد. فأخذت، نتيجة ذلك، في قراءة ما يتصل بموضوع الإرشاد وتتعلم أثناء ذلك قدر الإمكان. وكانت كلما توغلت في القراءة تزداد إدراكاً بأن الإرشاد يتعلق بنموها وأنها بحاجة إلى أن يصبح التأمل جزءاً من ممارستها للإرشاد.

نعم التجدد وإعادة الحياة:

يوفر الإرشاد فيما يوفره فرصة للتجدد وإعادة الحياة. ذلك أن التأمل النقدي عبر مراحل العلاقة الإرشادية يأتي بنظرات معمقة جديدة عن المرء والشركاء في العلاقة الإرشادية، والعلاقة التعلمية. فمن نعم التجدد الشعور بوضوح الهدف والحيوية.

مثال ذلك ما خبره سيريل الذي كان في وظيفة تفرض عليه معاناة الضغوط الشديدة وتحمله دائماً على الجري، سواء كان في الطريق أم في المكتب. ومع ذلك فقد ظل يتواصل مع مسترشديه بانتظام. وكان يستمتع بما كان يوفره له كل منهما من حوافز فكرية وعاطفية مما حمله على أن يجعل العلاقة بهما في مرتبة الأولويات. وكان أن أعادت تجربته الإرشادية صلته في النهاية بشعوره بالهدف وحملته على إعادة التفكير في أولوياته.

والإرشاد يمنح نعمة التجدد فلا بد للمرشد أولاً من أن يكون منفتحاً لتلقي النعمة. وحين لا يتمهل المرشدون لإعداد أنفسهم للعلاقة الإرشادية والتأمل في ما يكتسبونه من تعلم لا ينمون ويحدون من نمو مسترشديهم. والتعلم يأتي أحياناً بفعل مصادفة عجيبة.

مثال ذلك أن دانا قبل خوضها العلاقة الإرشادية لم تكن تعنى بالرياضة. أما مسترشدها كلارك فكان شغوفاً بالرياضة ومشوقاً في رواياته عن الألعاب والمباريات. وبالنتيجة أثارت أحاديثه الفضول لديها فأخذت تصغي إلى أحاديث العاملين معها عن الرياضة بعناية، وهي التي كانت توليها أذناً صماء. ولما ازدادت معرفتها أخذت تربط بين الرموز الرياضية وعملها كمديرة. فأصبحت من ثم متتبعة لعملية إنشاء الفرق. فكانت كلما شاهدت مدربي الفرق أثناء عملهم اكتسبت منهم مهارات تستطيع تطبيقها عملياً كمرشدة. وهكذا أخذت دانا ترى الأشياء من منظور مختلف تماماً وصارت تجد متعة في ما كانت ترى وتلاحظ.

جوهر المسألة:

يقتضي تيسير العلاقات التعلمية من المرشد إعداداً وتأملاً طوال عملية الإرشاد. والتعلم من التجربة هو الرافعة الرئيسة في تيسير التعلم.

والأدوات المتضمنة في هذا الكتاب مصممة لتحث على ممارسة التأمل في الإرشاد وتوجهه بمساعدة المرشدين في تهيئة ما لديهم من مهارات والعناية بتطويرها وزيادتها. وكتاب دليل المرشد هذا يعرض فرصة للتأمل في التعلم والعلاقة الإرشادية.

وفيما يلي بعض النصائح في ما يجب القيام به وما ينبغي الحذر منه لتيسير تعلم مسترشدك وفي الوقت ذاته تيسير نموك وتطورك:

شحذ الوعي. هذا الكتاب دليل إلى تيسير العلاقات الإرشادية الفعالة. وشحذ الوعي يؤدي إلى عمل أكثر تشبعاً بالمعرفة. فاستخدم المفاهيم التي يعرضها الكتاب لشحذ وعيك. ولا تدع الصيغ والشكليات تستعبدك.

استعادة التعلم. يدعو هذا الكتاب إلى الأخذ بقاعدة التأمل. ذلك أن السيطرة على الفعل والتأني للتعلم منه أثناء حدوثه يكسب المرشد سلطة

وسيطرة والعلاقة يسراً. فقف بعد كل علاقة متأنياً لتستعيد التعلم. لا تنتظر حتى الغد، لأن الفائدة من لحظة الحدث تكون قد مضت وانقضت.

الشريك. يعرض هذا الكتاب الشراكة باعتبارها علاقة التزام واهتمام يمكن أن تكبر بالإعداد والتهيئة الجادة من المرشد. كن شريكاً للمتعلم. لا تكن ناقلاً للمعرفة. بل اسع إلى التشجيع على طلب التعلم الموجه ذاتياً.

إن الرحلة لا تنتهي وإن حرثت الأرض وزرعت البذور، وتمت رعاية الزرع وجرى الحصاد. التجدد والإنتاج يستمران طويلاً بعد ذلك كله ويوفران مباهج لم تكن متوقعة. ولعل أعظم المنح وأغناها هي نعمة النمو.

نعمة النمو:

تقدم قصيدة، مارج بيرسي "النجوم الخماسية السبعة" (1982) التي اقتبست منها المقتطفات في هذا الكتاب صورة آسرة للنمو لتطوير علاقات إرشاد صحية.

إننا نحمل، خلال "موسم النمو" وفيما نحن منهمكون في الإرشاد، دورتنا الخاصة، وجدولنا الزمني الخاص، وتاريخنا الخاص، وتفردنا، وطرقنا الخاصة في العمل. ولكي يتحقق التعلم علينا أن ندرك، ما نحمله نحن وما يحمله شريكنا في الإرشاد إلى هذه العلاقة. ونفهم تعقيد العناصر المختلفة في العلاقة. ونجلب الوعي بعملية التعلم وإدراك بالمد والجزر في مراحل الإرشاد. ونقوم بعقد الصلات والامتداد، ونسعى ونزيد بحيث يصبح الإرشاد تجربة تحمل على الرضى.

إن ما يحدث في العلاقة الإرشادية قد يكون له تأثير عميق ودائم. وعملية تيسير علاقات التعلم الفعال عبر عملية الإرشاد تحمل كل منا على التفكير في ما قد نصير إليه.